قصة قصيرة

...وانطفأ المحرّك

ماجد طيفور

جلس في زاوية بيته.... ارتجفت شفته السفلى وتلعثم لسانه وهو ينطق بالصلوات والشتائم واللعنات والتعويذات. جفّ ثغره وليس من ماء يرويه.... الماء في المطبخ والزجاج المتناثر على الأرض يحول دون الوصول إليه... فكر ان يزحف المسافة زحفاً لكنه سرعان ما عدل عن رأيه وقبل بجفاف ريقه وكفّ عن صلواته وتعويذاته ولعناته وشتائمه...

وفجأة أنهمر الرصاص غزيراً على النافذة واخترق بعضه زجاجها، فدبّ الفزع في قلبه ولمس الرعب أطرافه التي بدأت ترتجف وأسنانه تصطك... مدّ يده بسرعة إلى صدره وتلمّس المنطقة حول قلبه. ما زال يدق... تلمّس بقية أنحاء جسده، ما زالت سليمة هي أيضاً، لم يخترقها الرصاص أو الشظايا...

منذ الأنفجار الأول وهو قابع في تلك الزاوية... تيبست ساقاه من الجلوس في وضع واحد ولمدّة طويلة... اقترب من النافذة ونظر بحذر عبر الخارج. دخان... ظلام... ضايقه الدخان... أراد أن يسعل... لم يفعل... حبس نَفَسَهُ وكأنه يبغي العذاب لجسده. حاول أن يحدّث نفسه ويسألها لماذا تعذّب جسده. لم يفعل أيضاً... لم يكن يرغب بالتحدّث مع أحد، حتى مع نفسه... أحسّ بالذنب تجاه وطنه... يجهل سبب هذا الاحساس، فهو ليس مسؤولاً عما يحدث... لماذا يعذّب نفسه إذن؟ أهو نوع جديد من السادية؟ انتابه السعال مرة أخرى فحبس نفسَه بشدة حتى احمرّت عيناه.

طلقات نارية.. تبعها صفير الرصاص بمروره قرب النافذة... ارتدّ مسرعاً إلى الوراء فاصطدم رأسه بجدار الغرفة وسقط على الأرض فوق الزجاج المتناثر الذي انغرس في يديه وصدره. أفقده الألم وعيه وأرسله في شبه غيبوبة...

مضت ساعة... بدأ يستيقظ... وكأن اعواماً مضت وهو على تلك الحال أو ربما دهراً برمّته. عاود النظر من النافذة... الدخان ما زال يملأ الفضاء... فوجيء بمنظر رجل مسلّح على سطح البناية المجاورة وقد صوّب سلاحه نحوه... تجمّد في مكانه والدم في عروقه... تسمّرت قدماه في الأرض ورفضتا التزحزح من مكانها... وكأنه ينتظر مبادرة الرجل المسلح... أغمض عينيه وبلع ريقه... مضت ثانيتان ولم يحدث شيء... مضت عشر ثوان ولم يشعر بأي شيء دخيل في جسده، كرصاصة مثلاً... فتح عينيه... المسلح الملثم ما زال يشغل المكان نفسه على سطح البناية.... سلاحه مصوّب في الاتجاه نفسه، ولكن من الواضح أن الرصاصة التي اخترقت رأسه لم تترك فيه أثراً للحياة...

تعالى صوت انفجار شديد اهتزت له جدران المنزل... لا شك أنها سقطت في مكان قريب! تناهى صفير إلى سمعه، قذيفة أخرى... أمسك رأسه بكفّيه وسدّ أذنيه بكل قوته. نظر إلى الأعلى... مضت ثوان ولم يسقط السقف فوق رأسه... لم تنفجر اذن... ستليها أخرى وأخرى وسيسقط السقف، هذا ما أكده لنفسه...

ترك مكانه قرب النافذة وسار بقدميه الحافيتين حتى وصل الباب... انفجار يلي الأنفجار والبناء يهتزّ... التيار الكهربائي منقطع وعليه أن يستعمل السلالم... وصل الطابق الأرضي بجهد كبير، فالزجاج المتناثر على طول الدرج والأبواب المنخلعة عن مفاصلها من جرّاء الضغط شكلت عائقاً في سبيله...

كانت مختبئة وراء الحائط... جميلة ذات شعر أشقر منسدل على كتفيها وقوام رشيق وكل ما يفتقده رجل أمضى ثماني وأربعين ساعة في غرفة مقفلة وبدون كهرباء...

اقترب منها وحاول أن يبتسم لها باغراء، ولكن الخوف جعل الابتسامة تتحول إلى رجفة بسيطة على شفتيه. لم تمنعه خطورة الموقف من أن يلقي نظرة سريعة إلى بنصر يديها بحثاً عن خاتم ذهبي.... لم يجده ولكنه وجدها تبتسم، له فأطرق رأسه خجلاً واحمرّت وجنتاه وكأنه نسي عمره الذي تجاوز الخمسين بسنتين...

بحث عن شيء ما يقوله لكسر حاجز الصمت بينهما فعجز، إلا أنها أنقذت الموقف:

- كم الساعة الآن؟

- الثامنة صباحاً...
- أعطني لفافة من فضلك.

اخرج علبة الدخان وقدم لها واحدة وأخرى لنفسه. اشتدّ الرصاص في الخارج فتراجعت هي الى الوراء وأسندت ظهرها إلى الحائط.... اقترب منها وأسند ظهره إلى الحائط بجانبها... انتبه أنه حافي القدمين فتورّدت وجنتاه خجلاً وانتبهت هي فضحكت.

تعالى صوت انفجار قريب ارتجّ له مدخل البناية، فبان الهلع واضحاً على وجهها وحاول هو اظهار اللامبالاة وعدم الاكتراث. إنه خائف وخوفه يفوق خوف الفتاة، إلا أنه رجل وأمام امرأة يراها لأول مرة، عدا عن كونها جميلة وصاحبة ابتسامة مشجعة...

- انت خائفة؟
- زال الخوف بوجودك قربي.
- نحن في أمان هنا.
- الحق معك...

أشاح بوجهه عنها وغضّت هي بنظرها... أشعل لفافة أخرى... لم يكن متأكداً مما قاله لتوّه، فكلاهما يواجه الموت حتماً. حاول أن يرسم ابتسامة، إلا أنها جاءت صفراء باردة...

- أتخشى الموت؟
- أنا خائف عليك.
- أنت تسكن هنا؟
- في الدور الرابع...
- لم تسألني من أين أتيت وماذا أفعل هنا، حتى أنك لا تعرف أسمي...
- الحياة قصيرة، فلماذا نضيعها بالأسئلة....
- أنت لا تحب الكلام.

أخرج لفافة أخرى... قدّمها لها، اعتذرت عنها فأشعلها لنفسه...

- أنت تدخّن كثيراً.

نظر إلى لفافته وجعل يراقب شعلتها ودخانها. قال لها:

- لولا هذه الحرب اللعينة لما كنا التقينا...
- وما أهمية لقائنا ما دمنا سنفترق؟
- قد يطول الأمر حتى نفترق، من يعلم؟
- حسبت الحرب انتهت... لم أظن أنها ستندلع بعد وقف اطلاق النار الأخير... ألم تقرأ الصحف الصباحية؟ كلها أكدت أن الحالة الأمنية في تحسن وأن التقاء الزعماء قريب لحل الأزمة.
- دم الزعماء هو نهاية المأساة...
- أية مأساة؟ الزعماء حريصون على مصلحة البلد، المحرّك وحده هو أساس العلّة...
- المحرّك يدور باستمرار، في كل زمان ومكان، المشكلة في الآذان التي تسمع صوت المحرّك ولا تعرف العطل فيه...
- عمن تتكلم؟
- بدأت أميل لصوت الرصاص....
- كيف أصل شارع فردان؟
- يحرقون البلد بلا سبب ولا غاية...
- هل لديك سيارة؟
- الأبرياء يموتون فقط والقناص يصطادهم واحداً تلو الآخر...
- أشارك صديقة لي شقتها في شارع فردان وقد تقلق علي إن تأخرت.
- الباحثون عن لقمة الخبز هم الذين يموتون...
- كم الساعة الآن؟
- أعداء السلام... هادمو الحضارة... قتلة الجمال... ستريهم الأيام كم كانوا على جهل....
- لا بد أنها قاربت التاسعة.
- المحرّك هو الأصل....
- أنا ذاهبة!
- المحرّك هو العدوّ، والعدو هو هيكل السيارة، وتلك واحدة من طابور سيارات، وكل تلك تدفع بنا إلى الضلال عن الطريق الأصلية...
- ألا تودّ أن تسألني عن أسمي قبل أن أذهب؟
- العالم كله يقف على رأسه، لم يعد يعرف سوى القتل...
- أسمي سمر!
- حتى في القبر يستقبلك ملاكان بالمطارق ويطيحان بها رأسك...

...

- والله الحشيشة أرحم من الجميع...
- هل لديك راديو؟ أريد أن أسمع الأخبار.
- المسرحية لم تنته، والسياسيون يرتدون باروكات كالعاهرات. العدو يتراجع وقواتنا تحتل المقاعد الأمامية في المسرح...
- أنا ذاهبة.
- لم يعد للناس همّ سوى العيش وبأية وسيلة كانت. الفضيلة بالنسبة لهم أن يكونوا أحياء فقط، وعندما يموتون تموت الفضيلة معهم...
- لم تقل لي ما أسمك.... على كل حال أنا تأخرت... يجب أن أذهب.

مدّت يدها إليه... أمسك بها وقرّبها حتى لامست خده... تعجّبت... قرّبها منه وكاد صدرها يلامس جسده.. طوّق بشفتيه شفتيها وغرس صدرها في جسده... أبعدها عنه قليلاً وراح يتأملها... لم يعد يفكر بالموت ولا بالقتلى الأبرياء ولا بالمقاتلين خلف المتاريس...

ابتعدت عنه... حاول أن يتبعها ولكنه تذكر أنه حافي القدمين.... وظلت تمشي مبتعدة وهي تلوّح بيدها... لمع شيء أسود على سطح البناية المجاورة... لحظات وانهمر الرصاص عليها... سقط الرجل أولاً ثم تبعته الفتاة، وانطفأ المحرّك...

بيروت